بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لوفاته:

هِشام شرابي بين «النظام الأبوي» و«العقل المجتمعي»

علاء الدين الأعرجي*

■ «إن الفلسطيني المكافح لا يمثل فلسطين وحسب، وإنما يمثل إرادة التحرير الإنساني الشامل».

رائد بين عمالقة الفكر العربي، نفقده جسدا، ونخلده فكرا خصبا وعقلا حرا مقتحما، يدخل إلى أعماق أزمة الأمة العربية، فيكشف عنها بصراحة وجرأة، خاصة حين يقول: «كشفت معاناتنا في العقود الأربعة أو الخمسة الأخيرة عن عقم الإيديولوجيات المتحجرة وعجز الأحزاب والقيادات الثورية عن إحداث التغيير المطلوب، وأدت بنا إلى الهرب نحو الماضي للتخلص من الحاضر وإلى اللجوء إلى الغيبيات الدينية للتحرر من الوضع الراهن وآلامه (النقد الحضاري للمجتمع العربي، ص9). وفي هذا المقال المكثف، سنكتفي بعرض ومناقشة ثلاث نقاط مختارة من فكره: أولا، التخلف الحضاري، ثانيا، «نظرية النظام الأبوي»، لا سيما من حيث علاقتها بنظرية «العقل المجتمعي»، ثالثا، ثورة الإسلام والثورة القومية.

أولا: التخلف الحضاري

في خضم بحثه الأحفوري المعمق عن جذور أزمة المجتمع العربي، توصل شرابي إلى أن معظم أسبابها الرئيسية تعود إلى عامل «التخلف الحضاري». وهو يلتقي في هذا الطرح مع عدد من المفكرين البارزين ومنهم قسطنطين زريق، ومحمد عابد الجابري، ومحمد أركون، وزكي نجيب محمود.

ففي كتابه «النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي» يقول شرابي: «إن التخلف الذي أقصده هو غير التخلف الاقتصادي أو الإنمائي أو التربوي»، أي أنه أعمق وأبعد وأشمل من ذلك. ثم يحاول أن يوضح هذه العبارة ويحدد موضع الداء فيقول: «إن التخلف الذي نجابهه هو من نوع آخر، إنه يكمن في أعماق الحضارة الأبوية (والأبوية المستحدثة)، ويسري في كل أطراف بنية المجتمع والفرد، وينتقل من جيل إلى آخر كالمرض العضال. وهو أيضا مرض لا تكشف عنه الفحوص والإحصاءات. إنه حضور لا يغيب لحظة واحدة عن حياتنا الاجتماعية، نتقبله من غير وعي ونتعايش معه كما نتقبل الموت نهاية لا مهرب منها، نرفضها ونتناساها في آن». (ص14)

ومع أنني أغبطُهُ على تعبيره البليغ في وصف أبعاد تخلفنا، وأوافقه على اعتبار الحضارة الأبوية مكمنا هاما لداء التخلف، غير أنني أقترح أن نُبدل تعبير «الحضارة الأبوية» بـ«الثقافة الأبوية». لأنني أرى أن «الثقافة» أوسع من «الحضارة»، خاصة لأن الأولى تنطبق على جميع الشعوب البدائية والمتطورة، على السواء. ومن جهة أخرى، فإنني أرى أن «الثقافة الأبوية» هذه تشكل جزءا مهما من «العقل المجتمعي»، لا سيما وأن نظرية العقل المجتمعي ـ (التي تفترض وجود عقل مجتمعي، يتكون من مجمل المسلّمات السائدة في أي مجتمع، بما فيها الأعراف والتقاليد والمعتقدات، وما يرتبط بها من قيمٍ) ـ تنطبق على جميع المجتمعات، في كل زمان ومكان. وقد شرحنا ذلك في كتابنا «أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي بين العقل الفاعل والعقل المنفعل».

وعودة إلى تعريفه للتخلف، يستطرد الأستاذ شرابي قائلا: «وعلى الصعيد النفسي ـ الاجتماعي، ومستوى النظرية والممارسة يتخذ هذا التخلف أشكالا عدة تتميز عن بعضها بعضا بصفتين مترابطتين: اللاعقلانية والعجز؛ اللاعقلانية في التدبير والممارسة، والعجز في التوصل إلى الأهداف. اللاعقلانية في التحليل والتنظير والتنظيم، والعجز عن الوقوف في وجه التحديات والتغلب عليها. إنه التخلف المتمثل في شلل المجتمع العربي ككل: تراجعاته المستمرة، في انكساراته المتكررة، في انهياره الداخلي». ص14، النظام الأبوي) وهو يرى أن السبب الجذري لجميع هذه المظاهر هو «النظام الأبوي» السائد في المجتمع العربي.

وعلى خلاف هذا الطبيب الماهر، الذي يضع إصبعه على موضع الداء، نجد أن الكثير من الكتاب العرب المعاصرين يعرضون أزمة الأمة العربية الراهنة والمتفاقمة، بطريقة إنفعالية: سطحية أو متشنجة.

فإما يتصارخون من ظلم الآخر وجوره، ويعلقون جميع أزماتنا ونكباتنا على شماعته، فيحملون الغرب (وبخاصة أمريكا، وربيبتها إسرائيل) وحده، مسؤولية هذه الأزمة، ويرفضون الاعتراف بأن جزءا كبيرا من المسؤولية يقع على عاتق «الذات»، بسبب تقصيرها في اللحاق بموكب الحضارة الحديثة الصاعدة ابتداء، ولا ينتبهون إلى أن هيمنة «الآخر» وتحكمه فينا، يعود سببه الجذري، قبل كل شيء، إلى ضعف الذات وتخلفها الحضاري، وهل هناك فرق بين الأمرين؟؛ وإما يستنجدون بحضارتنا العظيمة السالفة، للمزايدة على منجزات الحضارة الراهنة، أو يتفاخرون بها لتعزية الذات أو تهدئة تأنيب الضمير، أو يستخدموننا دفاعا عن تهمة التخلف الراهن، كالثري الذي فقد ثروته ومكانته، فأصيب بلوثة عقليه جعلته يهذي ويكرر ما كان يتمتع به من ثروة وسطوة، أو كالأعرابي البسيط الذي يقول: «فإذا سكرت فإنني رب الخورنق والسدير ـ وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير». وبدل أن يؤدي هذا التغني بالحضارة العربية الإسلامية السالفة، إلى بذل الجهود للحاق بركب الحضارة الصاعدة، أدى إلى التبرير والتواكل والتقاعس، وبالتالي إعادة إنتاج التخلف.

لذلك يقول شرابي: «إذا أردنا لمجتمعنا العربي أن يتجاوز أزمته المتفاقمة، وأن يسترجع قواه ويدخل ثانية في مجرى التاريخ، فلا بد له من القيام بعملية نقد حضاري يمكنه من خلق وعي ذاتي مستقل واستعادة العقلانية الهادفة» (النقد الحضاري للمجتمع العربي، ص10).

وهو ينتقد، من جهة أخرى، «المثقف العربي وتذبذبه الفكري، لا في موقفه المساوم إزاء السلطة السياسية وحسب، بل في موقفه المتردد تجاه السلطة الدينية والتيار الأصولي أيضا». كما يميز بين الحركات الأصولية والتراث الديني، ويرى أن «القائلين بالحل الديني لا يملكون حق تمثيل الحقيقة الدينية. فالدين الإسلامي ليس حكرا على فئة من المسلمين دون الفئات الأخرى، فالدين هو ملك كل مسلم آمن بالله ورسوله» (النقد الحضاري، ص17).

ثانيا: النظام الأبوي

يعرف شرابي مفهوم المجتمع الأبوي بأنه «نوع محدد من البنية الاجتماعية ـ السياسية، وهي بنية ذات سلَّم قيم وخطابات وممارسات، وتعتمد هذه البنية على نمط تنظيم اقتصادي مميز». ويضيف قائلا إن «الأبوية هي سمة العلاقة الاجتماعية المركزية للتشكل الاجتماعي السابق على الرأسمالية» (النظام الأبوي، ص33).

أما تعريفنا لـ«النظام الأبوي»، بمفهومه العام فيقضي بأنه: نظام اجتماعي يستند إلى روابط تراتبية بين أفراد المجتمع، يخضع بموجبها البعض للبعض الآخر، ويأتمر بأوامره ونواهيه، بدرجات مختلفة وبأشكال مختلفة، رهنا بدرجة تطور المجتمع. وهكذا يجد الفرد نفسه في مثل هذا النظام، و خصوصا في المجتمعات المتخلفة، محكوما بعلاقات عمودية، يخضع فيها الأدنى للأعلى : أي الصغير للكبير، والمرأة للرجل، والمحكوم للحاكم، والمرؤوس للرئيس، والمقلد (بالكسر) للمقلَدَ (بالفتح)، والرعية لَلراعي (لاحظ أن «الراعي» في الأصل اللغوي هو راعي الغنم والرعية هم الأغنام)، والفقير للغني. وتبعا لهذه العلاقة التراتبية العمودية، يُصنَّفُ الأفراد والجماعات في السلَّم الاجتماعي، وبالتالي في سلّم الأولويات الذي يحدد نسب الحصول على الحقوق والامتيازات، التي لا تخضع لمعايير الكفاءة الفكرية والعلمية والعملية، ومستوى الإنتاجية، بل لمجرد الانتساب إلى فئة معينة من الفئات المشار إليها أعلاه، أو الانتساب إلى عشيرة أو طبقة أو أسرة.

والبديل عن هذه العلاقات العمودية هو العلاقات الأفقية القائمة على المساواة في الحقوق والواجبات الأساسية، وإتاحة نفس الفرص لجميع أفراد المجتمع من دون أي اعتبار للجنس أو الأصل أو المعتقد أو الفئة أو الطبقة أو العشيرة.

ولاحظ شرابي أن المجتمعات الغربية قد توصلت إلى هذه العلاقات الأفقية نتيجة تطورها الحضاري. فالنظام الإقطاعي الأوروبي الذي كان سائدا في القرون الوسطى لم يكن قائما على النظام الأبوي، بل على أساس نظام التعاقد الاجتماعي.(ص72 النظام الأبوي) وهكذا تتوفر في تلك المجتمعات علاقات أفقية تتجلى من خلال درجة معينة من المساواة في الفرص وفي الحقوق والواجبات فضلا عن حرية التعبير وإبداء الرأي والاختلاف والاعتراض.

ولنا تحفظ على هذا الطرح يتجلى في أننا نعتقد أن جميع المجتمعات تدين بهذا النظام التراتبي (الأبوي)، حتى المجتمعات التي نالت قسطا كبيرا من الحضارة، ولو بدرجات أقل. فضلا عن أن المجتمع الغربي المتقدم حضاريا، قد ينطوي على حركات أصولية «أبوية» متغلبة أحيانا.. أليست الإدارة الأمريكية المؤمنة بعقيدة مسيحية أصولية، خاضعة لفرسانها من المحافظين الجدد الذين يبشرون بالثقافة الأبوية؟ فكتاب «النزعة العسكرية الأمريكية الجديدة» لأستاذ العلاقات الدولية الأمريكي أندرو باسفيتش الصادر في شباط (فبراير) 2005، يعرب عن إيمان المحافظين الجدد بدور السلطات التقليدية كالآباء والجيش ومؤسسات تنفيذ القانون والأسرة داخل المجتمع الأمريكي. وقد رفض المحافظون الجدد الثورة الثقافية التي اجتاحت أمريكا في الستينات والتي نادت بالتعددية الثقافية وحقوق الأقليات والنساء، إذ رأى هؤلاء أن الهجوم على المؤسسات التقليدية من شأنه أن يضعف أمريكا داخليا مما يضعفها خارجيا.

أما «السلطة الأبوية» في المجتمع العربي، التي تشكل أهم مظهر من مظاهر النظام الأبوي فيه ، فإنها تطغى فتصبح كما يسميها شرابي «ذهنية أبوية (أو عقلاً مجتمعيا، بتعبيرنا)، تتمثل في نزعتها السلطوية الشاملة التي ترفض النقد ولا تقبل بالحوار إلا أسلوبا لفرض رأيها فرضا. إنها (ذهنية امتلاك الحقيقة) الواحدة التي لا تعرف الشك ولا تقرّ بإمكانية إعادة النظر» (ص 16، النظام الأبوي).

ولئن كنت نُعَبِر عن هذه «الذهنية الأبوية» بمصطلح «العقل المجتمعي»، الذي يستغرق «النظام الأبوي»، كجزء من أجزائه المهمة، نرى أن هذه الذهنية الاتّباع، موروثة من عصور التخلف، وخاصة، من الفترة المظلمة التي أعقبت عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، فضلا عن عصور البداوة التي كانت تتحكم في العقل المجتمعي العربي في الحقبة الجاهلية. وقد حارب الإسلام هذه العقلية المجتمعية البدوية، فقال الرسول (ص) في خطبة الوداع «إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء، كلكم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى».

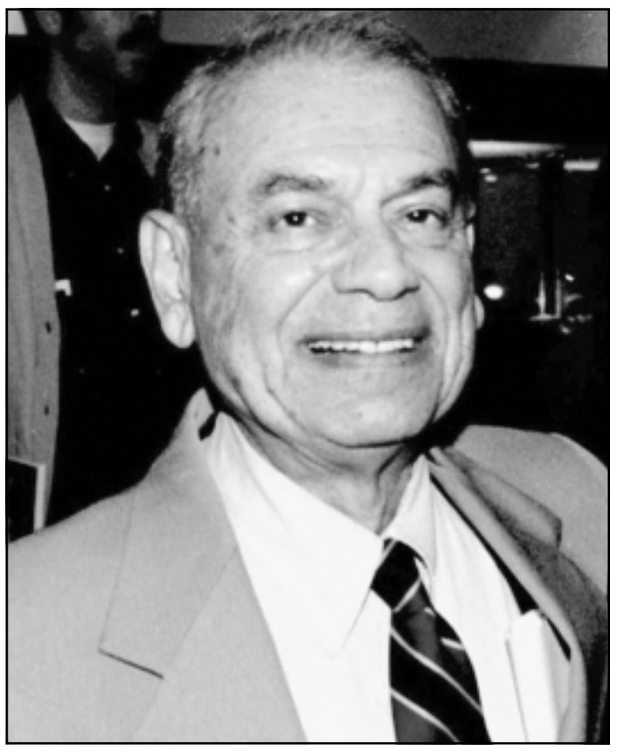

هشام شرابي (القدس العربي)

ثالثا: ثورة الإسلام وثورة القومية العربية

ويرى شرابي أن «المجتمع العربي شهد حتى القرن العشرين حركتين اجتماعيتين أساسيتين فقط، عملتا على تجاوز هوية العائلة/ العشيرة وتطلعاتها، أي ثورة النبي الكريم في القرن السابع في دعوتها إلى إحلال أمة الإسلام مكان القرابة القبلية، ثم الحركة القومية العربية في دعوتها إلى جمع عرب القرن العشرين تحت راية عقيدة علمانية في وطن قومي واضح الحدود الجغرافية» (ص70، النظام الأبوي).

ونعلق على هاتين الحركتين بنقطتين:

1 ـ الإسلام كان ثورة عظيمة على الجهل والخرافة وعلى البداوة. بيد أنه لم يتمكن من القضاء على الطباع القبلية، بل ظلت هذه الذهنية تنخر في الحضارة العربية الإسلامية، منذ وفاة الرسول، وتجلت، بين أمور كثيرة أخرى، بالصراع على الخلافة فيما بين بطون قريش نفسها. ذلك الصراع الذي استمر بتأثيره السلبي على كيان الأمة حتى يومنا هذا. ولنا من الخلافات والصراعات القائمة اليوم في العراق ولبنان وسورية، بوجه خاص، مثال ودليل على ذلك. وقد حللت وشرحت السبب الرئيس لاستمرار هذه الظاهرة بنظريةّ عدم مرور العرب بمرحلة الزراعة على نحو يكفي لمحو الذهنية البدويةّ، في كتابي المشار إليه أعلاه.

2 ـ وفيما يتعلق بالحركة القومية العربية العلمانية الداعية إلى جمع العرب في وطن قومي واحد، يحقق آمال الأمة ويقف درعا ضد أعدائها، نلاحظ بكل وضوح أن أكثر الجهات المعارضة لها تصلبا، هي الطبقات الحاكمة في المجتمعات الخليجية حيث يتجلى النظام الأبوي القبلي (أي العقل المجتمعي البدوي بتعبيرنا)، في أوضح صوره، فضلا عن الحركات الأصولية التي هي الأخرى خاضعة للنظام الأبوي المتزمت، والذي يتجلى برفض الآخر أو إلغائه بل تصفيته تماما. والمفارقة الكبرى أن هذه الاتجاهات الخليجية والإسلامية المتطرفة، تلتقي تماما مع خطط الدول الغربية وعلى رأسها أمريكا، وربيبتها إسرائيل، في تدمير أية محاولة لتوحيد العرب في أمة واحدة.

أما النظام الأبوي المستحدث، الذي طرحه المفكر هشام شرابي، فله حديث طويل آخر، يضيق به هذا المجال.

بطاقة:

بطاقة تعريف بالمرحوم الدكتور هشام شرابي

ـ ولد في مدينة يافا (فلسطين) في عام 1927، وتوفي في بيروت في 13كانون الثاني/ يناير، 2005.

ـ تخرج من جامعة بيروت الأمريكية في عام 1947، والتحق بجامعة شيكاغو، حيث كتب أطروحته في التاريخ الحضاري في عام 1953.

ـ انضم إلى الحزب القومي السوري الاجتماعي عام 1947، الذي أسسه أنطون سعادة. وكان مسؤولا عن فرع الحزب في أمريكا حتى انسحابه منه في 1955.

ـ قام بتدريس مادة «تاريخ الفكر الأوروبي» في جامعة جورج تاون، وشغل كرسي «عمر المختار»، للحضارة العربية في الجامعة.

ـ تولى رئاسة تحرير مجلة «دراسات فلسطينية» الصادرة عن مركز الدراسات الفلسطينية.

ـ ساهم في إنشاء عدد من المؤسسات التي تهدف إلى تحقيق فهم أفضل للعالم العربي وللقضية الفلسطينية.

ـ وبرز من بين هذه المؤسسات مركز الدراسات العربية المعاصرة في جامعة جورج تاون (1975)، المركز الاكاديمي الوحيد المخصص لدراسات العالم العربي في الولايات المتحدة.

ـ كما ساهم في تأسيس مركز التحليلات السياسية حول فلسطين في واشنطن في 1990، ثم صندوق القدس، المنظمة الفلسطينية التي تقدم منحا للطلاب من فلسطين.

ـ له عدة مؤلفات باللغتين العربية والإنكليزية أهمها: المثقفون العرب والغرب؛ مقدمات لدراسة المجتمع العربي؛ الجمر والرماد؛ النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي؛ النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين.

---

* محام وباحث من العراق يقيم في نيويورك

شاهد في...

زيارة السيد الفيلسوف

خيري منصور *

■ خطرت ببالي ثلاثة عناوين ممثلة لزيارة السيد الفيلسوف، على اختلاف المحمول الثقافي في كل منها، «زيارة السيدة العجوز» لفردريش دورنمات، التي تحولت إلى فيلم عربي بعد تمصيرها ضمن موجة ازدهرت في ستينيات القرن الماضي لتعريب وتمصير وتعريف المسرح العالمي، و«زيارة السيد الرئيس»، وهو عنوان لفيلم كوميدي تدور أحداثه حول انتظار الفلاحين لزيارة الرئيس الأمريكي المحمل بالهدايا والمعونات، وأخيرا «زيارة السيدة السومرية» للشاعر حسب الشيخ جعفر، وهو عنوان مجموعة شعرية تنسب إليها ريادة ما يسمى التدوير في القصيدة العربية الحديثة، وتستلهم الأسطورة بحيث تتجلى السيدة السومرية» في عدة صور. تلك الزيارات الثلاث يباعد بينها التاريخ وأحيانا الفكرة، وما من قاسم مشترك بينها غير ترقب القادم، سواء كان من المجهول الشعري أو من التاريخ والأسطورة، لكن زيارة السيد الفيلسوف هي باختصار زيارة جان بول سارتر لمصر عام 1967 وقبيل حرب حزيران (يونيو)، ورغم أنني كنت طالبا بجامعة القاهرة في تلك الأيام وأتيح لي أن أحضر الندوة التي استضافت سارتر إلا أن ما سمعته مؤخرا وبعد عدة عقود عن تلك الزيارة أثار دهشتي بأثر رجعي، فكل ما كنا نعرفه عنها أن مثقفا مصريا نظم الزيارة بالاتفاق مع جريدة الأهرام، وأن سيمون دي بوفوار وكلود لانزمان قد صحبا الفيلسوف في تلك الزيارة التي تمت لأسباب تراجيدية ثم تحولت إلى فيلم كوميدي، فما رواه الدكتور محمد أبو الغار الأستاذ في كلية الطب والناشط المعروف عن زيارة سارتر لمصر ومن ثم إلى غزة عام 1967 قد لا يخطر ببال أحد على الإطلاق.

يقول.. إن الجهة الداعية لسارتر حددت له يوما لزيارة قرية كمشيش التي وقعت فيها أحداث عنف ضد الفلاحين بعد ثورة تموز (يوليو) وبالفعل وصل الفيلسوف إلى القرية ليجد حشدا من الفلاحين بانتظاره، وأكثرهم لم يكن يعرف من هو الزائر الكبير ولكنهم كانوا ينتظرون الولائم وتوزيع الهدايا والأطعمة بالمناسبة، لهذا هتفوا للفيلسوف كما يهتفون لزعيم سياسي ورفعوا الشعارات ذاتها.

وحسب رواية د. أبو الغار فإن الاتحاد الاشتراكي تولى لعدة أسابيع تدريب شبان وشابات من تلك القرية على طقوس الاستقبال، وإن كان بعض هؤلاء قد اختيروا لكي يسألوا الفيلسوف أسئلة لا يحلم بأن يتعرض لها في قرية عربية، ومنها العلاقة بين مسرحية «الذباب».. وكتاب الوجود والعدم!

و قد أصيب سارتر فور وصوله إلى القرية بصدمة لم يتهيأ لها، ولم يخطر بباله أنه كان على موعد معها، لهذا لم يمكث طويلا في القرية وغادرها إلى حيث يقيم في القاهرة استعدادا لاستئناف الزيارة إلى غزة..

وفي غزة حدث ما لا يقل كوميدية عما حدث في كمشيش فقد أعد للزيارة شبان وشابات فلسطينيون حفظوا عن ظهر قلب ما سيقولونه للزائر.. وكان بين هؤلاء عجوز مغرورق العينين ينظر في أسى وحنين إلى ما وراء الحدود..

***

في فيلم «زيارة السيد الرئيس» الذي قام ببطولته محمود عبد العزيز، يسمع الناس في القرية التي تم اختيارها كمحطة لزيارة الرئيس الأمريكي أن الزائر سيقدم المعونات والهدايا للنساء الحوامل، بهذا يسرح الرجال إلى بيوتهم لإنجاز هذه المهمة، ومن لم تسعفه صحته أو شيخوخته استعان بطبيب القرية ولكي تكتمل الدائرة الكوميدية لم يصل الرئيس إلى القرية، وأصبح مثل الإله غودو في مسرحية بيكيت، يأتي ولا يأتي، وإن كانت حياة الناس كلها قد تخلخلت وانقلبت بانتظاره..

زيارة الفيلسوف رغم ما أحاط بها من أجواء كوميدية تمت، لكنها لم تتم أيضا، لأن الرجل لم يفهم ما أحيط به من رعاية وما سمعه من ضجيج وما شاهده من يافطات تحمل شعارات غامضة بالنسبة إليه.. ولا شك في أن كلود لانزمان همس بأذن صاحبه شيئا ما.. ثم تولى تحريضه على من استضافوه، خصوصا بعد أن التقى عبد الناصر على هامش الزيارة وربما كانت الزيارة كلها على هامش ذلك اللقاء!

عاد الفيلسوف من تلك الزيارة إلى باريس وقد قرر أن يكرس عددا من مجلة «الأزمنة الحديثة» التي كان يترأس تحريرها فرانسيس جانسون عن الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وانتهى الأمر إلى سجال غير متكافئ بين مثقفين يهود استعدوا جيدا لهذه المعركة وبين مثقفين عرب اعتمدوا كالعادة على الموهبة وما امتازوا به من الحديث في كل شيء وفي كل مقام ومقال.. ثم شاع في أوساط المثقفين العرب أن سارتر قد أدار ظهره لمخيمات الفلسطينيين، وانحاز لإسرائيل بعد حرب حزيران (يونيو).

وبدأت بعد ذلك حملة المقالات الهجائية للضيف العامد، وللمفكر الذي أصابه العمى كما رأى بعض المتحمسين، وسرعان ما طوي هذا الملف لأن ما أعقبه كان أغزر مما سبق، ولم يفطن المثقفون العرب لسارتر الذي ترجموه حتى النخاع وترجموا سعاله ودخان سجائره في الكافي دي فلور إلا بعد أن جاء جان جينيه إلى بلادهم وزار الفدائيين، وكتب عنهم نصا مبدعا ترجمه إلى العربية الشاعر كاظم جهاد!

***

في «زيارة السيدة العجوز» لدورنمات يتهيأ أهل القرية التي خرجت منها تلك المرأة فقيرة وطريدة وعادت إليها ثرية لاستقبالها بحفاوة تليق برسول، ما دامت قد وعدت أهل بلدتها رغم الجور الذي لقيته منهم أن تنقلهم من الجحيم إلى الفردوس، وكأنها المعجزة التي تشفي الأبرص وتحقق وصال المحرومين، ولم يدر بخلد هؤلاء المساكين أن السيدة جاءت لتنتقم، ولكي تتلذذ بجوعهم بعد أن تسيل لعابهم على وعودها. بالطبع لم يأت الفيلسوف إلى كمشيش أو غزة لينتقم أو يتلذذ بمشهد الخيام وتجاعيد الوجوه المنعمة بالشقاء.. لكن الطريقة التي عومل بها كانت سببا كافيا لإحداث رد فعل غير محسوب من قبل.

ورغم كونه اشتراكيا بهذا القدر أو ذك إلا أنه طالما ضاق ذرعا بالتشكل الأيديولوجي لما سماه الاشتراكية الوافدة من الصقيع، وما اتخذه من مواقف بعد الغزو الروسي لبراغ في ربيعها الأسود!

ولعله شاهد في الكيفية التي لقن بها الفلاحون ما ذكره بتلك الفوبيا الكولوخوزية فكان موقفه السياسي لاحقا مشوبا بمزاج وجودي يتطير من القطعنة ومن الأدبيات الشعارية، ومن كون الناس حسب تعبيره ومصطلحه الوجودي الأثير: سواهم، أي عندما يغتربون عن أنفسهم ويكونون أشخاصا آخرين.

فالفلسفة الوجودية في بعدها السارتري على الأقل جهرت بمضادات التقمص، وتمثيل الأدوار، ومن حق أي كاتب او فيلسوف ان يتيح لنفسه فرصة المشاركة بين ما يراه فلسفيا وسايكولوجيا وبين ما يراه على صعيد تاريخي.

وهذا ليس بأي حال دفاعا عن موقف سارتر الذي ظهر التناقض فيه منذ كتب عن المسألة اليهودية متجاهلا البعد الاقتصادي للدراما اليهودية منذ الإمبراطورية الرومانية حتى الإمبراطورية البريطانية التي وعدت اليهود بالدولة.. وأنجزتها!

لكن المثير بحق هو الكيفية التي يتعامل بها العرب مع مثقفي العالم، خصوصا هؤلاء الذين تسبقهم إلى الصحافة ودوائر الإعلام أنباء وآراء على مواقفهم الإشكالية والملتبسة.

فالأسلوب الذي تعامل به العرب مع محنة روجيه غارودي بعد صدور كتابه الشهير عن أعمدة الخرافة السبعة في الأيديولوجيا اليهودية يصلح عينة أخرى لكوميديا من طرز مغاير.. ومن هللوا لغارودي وفرحوا بإعلانه الإسلام تناسوا أن العرب والمسلمين كانوا وما يزالون بحاجة إليه «مسيحيا» و«فرنسيا»، وتلك حكاية اخرى لا نريد الاستطراد بها حتى التورط.

***

لدينا من الأمثولات المشابهة لكوميديا زيارة الفيلسوف ما يكفي للجزم بأن العرب أنفقوا مالا وجهدا ووقتا للدفاع عن قضاياهم بنوايا قد تكون حسنة، لكن طريق جهنم المعبد بمثل هذه النوايا لم يكن خارج التضاريس التي ضلوا في شعابها المعرفية والسياسية، فأحياناً يكتشف المرء أن ما فعله كي ينجو قد تحول إلى سبب منطقي لغرقه، وقد يتحول الاحتجاج إلى قضية عادلة إلى احتجاج ضدها إذا كانت الوسائل والأدوات قد استخدمت بالمعكوس أو على نحو خاطئ..

وبعيدا عن تلك الكوميديا السارترية في زمن تراجيدي بامتياز تعالوا نتفحص معا نصوصا شعرية وغير شعرية كان محركها والوازع فيها الدفاع عن الحق والانتصاف للضحية المغلوبة على أمرها..

إن بعض هذه النصوص عندما ترجمت تحولت إلى مضادات فكرية ونفسية للقضية العادلة، لأنها تغذت على التاريخ ولم تقدم له قيمة إبداعية أو حتى أخلاقية، فأحيانا يكون الصمت أبلغ ألف مرة من ثرثرة عقيمة، ينوب بها ندابون محترفون عن ضحية لم تشهد بعد، وقد تكون هذه مناسبة للاعتراف بأنني أصبت بالهلع لدى قراءة نص عبري عن مدينة فلسطينية، فقد كان وثيق الصلة بأسرارها، وعندما قرأت لكاتب النص تعليقا ساخرا على حاييم بياليك الشاعر الصهيوني الذي تحدث عن مملكة ليست من هذه الأرض، تضاعف هلعي، وبدأت أحس أن الكتابة تفتضح شعورا ما بالاستحقاق، سواء كان تاريخيا أم وجوديا وسايكولوجيا!

***

أنقول أخيرا ان هناك نصوصا عربية حاولت استلهام الصراع وتغذت من ديناميات.. هي أشبه باحتفال قرية كمشيش.. وهي تستقبل السيد الفيلسوف؟

---

* شاعر وكاتب من الاردن

سميح القاسم في اليوم العالمي للتضامن مع الشعب الفلسطيني في روما:

لا بديل للفلسطينيين إلا الامل!

روما ـ «القدس العربي»

ـ من حكم السوقي:

انتهت قبل أيام في ايطاليا فعاليات الأسبوع الثقافي الذي أقيم للتضامن مع الشعب الفلسطيني بناءاً على قرار من الأمم المتحدة بجعل اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من كل عام يوماً للتضامن مع الشعب الفلسطيني في كفاحه ضد الاحتلال الاسرائيلي.

وقد نظمت هذه الفعاليات التي شملت العديد من المدن الايطالية برعاية من جمعية أصدقاء الهلال الأحمر الفلسطيني التي تضم العديد من السياسيين والمفكرين والاعلاميين الايطاليين وجمعية الهلال الأحمر الفلسطيني في ايطاليا برئاسة الدكتور يوسف سلمان، وبمشاركة الدكتور يونس الخطيب رئيس الهلال الأحمر الفلسطيني في فلسطين. أما الفعاليات الفنية فقد تألق فيها الفنان الفلسطيني الشاب محمد سلمان الذي أطرب الحضور بالكثير من أغاني التراث الفلسطيني.

وكان الشاعر الفلسطيني سميح القاسم نجم الفعاليات بلا منازع والذي أبهر الحضور سواء عندما كان يتحدث أو عندما يقرأ شعره، وقد دوى التصفيق حاداً طويلاً عندما اقترح القاسم في بداية حديثه أن يتم تغيير مسمى المناسبة الى اليوم العالمي للتضامن مع الأمم المتحدة المقرر من قبل شعب فلسطين وسائر الشعوب المقهورة وذلك كناية عما تعانيه الأمم المتحدة من ضعف وتآكل وانحياز وهيمنة قوى الطغيان عليها.

وعندما قرأ أحدث ابداعاته (كفى غوانتانامو) فهمه الجميع دون ترجمة، واصلهم بمشاعره وأوصلهم الى قصده. كان هادراً حيناً كأمواج المتوسط، شامخاً أحياناً كشموخ الجليل حيث تقع قريته (الرامة). بدا لي القاسم وهو يتكئ على عكاز يلازمه بعد اصابته بحادث سير في فلسطين كسليمان النبي، يخاطب كل حي فيفهم.

(كفى غوانتانامو) صرخة على الظلم والقهر وتلخيص لحالة الطغيان الأمريكي ومن يدور في فلكه في حق الانسانية أفراداً أو جماعات أو شعوباً، وبسخرية تعكس واقعاً مريراً ورداً على تعليق من أحد الحضور الذي أشار الى أنه سمع أن شارون مرشح لجائزة نوبل للسلام. قال القاسم:

(والله اني أخشى أن يحصل الأربعة ملايين اسرائيلي على جائزة نوبل للسلام بينما لم يحصل بعد فلسطيني واحد من الستة ملايين فلسطيني على سلام عادل وآمن). اجرينا هذا الحوار مع القاسم:

■ في اللحظة الراهنة، ومع كل ما في العالم من اضطرابات أين يجد سميح القاسم نفسه؟

■ محسوبكم ولد في غمرة اضطرابات الحرب العالمية الثانية، وعاش سن المراهقة في غمرة اضطرابات النكبة والحكم العسكري الاسرائيلي، وما زال منذ ولادته الى فتوته والى الآن (66 سنة) منخرطاً منغمساً في حالة من احتراف الشعر والقلق والاضطرابات. وبالعربية الفصحى (سي. لا. في يا بُني... سي. لا. في)!!!

■ وهل لا زالت الكلمة في القصيدة كالرصاصة في البندقية كما كانت عبر أزمان طويلة؟

■ لم تكن الكلمة في القصيدة كالرصاصة في البندقية، في أي وقت من الأوقات القصيدة عبرّت عن الشاعر والبندقية عبرّت عن المقاتل، ولأنهما من طينة واحدة فقد حصل الانسجام والتماهي بينهما.

■ في قصيدة «كفى غوانتانامو» تلخيص لحالة مضطربة للطغيان السائد، ترى ماذا بعد غوانتانامو؟

■ قصيدة (غوانتانامو) تُسقط القناع عن وجه الكذبة، كذبة النظام الأمريكي الاستغلالي العنصري القمعي. ويقيناً ان النسغ الانساني المتجدد في جسد البشرية سيمحو (غوانتانامو) وجميع السجون والأقنعة عن حلم الانسان في الحق والحرية والجمال.

■ على الصعيد الفلسطيني، هل لا زال للأمل فُسحة؟ وما هي برأيك الأبعاد الحقيقية من وراء اخلاء المستوطنات في قطاع غزة؟

■ لا بديل للأمل الفلسطيني. اليأس ثمنه باهظ التكاليف ولا يستطيع شعبنا تحمل نفقات اليأس، واخلاء مستوطنات قطاع غزة حقّ لشعبنا، لكنها في قاموس السياسة الاسرائيلية كلمة حق يراد بها باطل!!

■ الى أين نسير نحن العرب في ظل ما نحن فيه وما نحن عليه؟

■ نحن العرب نسير نحو حتفنا في الحياة الحرّة الكريمة، لكن قوى الشر الأجنبية والعربية، على السواء، تحاول أن تُسيرنا نحو الحضيض المعتم، حضيض القمع والجهل والفقر والمذلة.

■ برأيك هل المزاجية والآنية هي ما يحكم الشعوب العربية، أم لك نظرة أخرى في واقع شعوبنا؟

■ لا المزاجية ولا الآنيّة. مطامع لصوص الأرض والتاريخ هي التي تحاول التحكم بنا واعدامنا وعلينا ألا نسقط في وهم حسن النوايا، الشر يحيط بنا من جميع الجهات وبجميع اللغات وعلينا أن نكون متأهبين لمواجهته والا فسنكون شركاء في الجرائم التي تُرتكب بحقنا.

■ هل هناك أمل في تغير قد يحدث لعالمنا العربي؟

■ الشعوب الحية هي التي تحمي الأمل وتصونه من فيروسات اليأس والتقوقع والهزيمة، وشعبنا رغم كل شيء هو شعب حي، ولا يريد ولا يستطيع سوى التشبث بحقه الانساني والالهي في الحياة والعمران والابداع.

■ العراق، فلسطين، أفغانستان..... سلسلة في قبضة الجبروت الأمريكي، ترى هل ستمتد هذه القبضة للمزيد، أم....؟

■ لا حدود لجشع الرأسمالية الأمريكية المتجسد في تسونامي العولمة المدمر، وما لم نعد لهم ما استطعنا فسيلتهمون جميع ثيراننا، لا الثور الأبيض فحسب.

■ وأخيراً ماذا لدى القاسم ليقوله؟

■ ما من مزيد أضيفه سوى الدعوة للاعتصام بحبل الله وبحبل الأمة، ومجابهة الظلم والطاغوت والاثم والعدوان، والانتباه واليقظة والحذر من فخاخ الأمية والتخلف والتشرذم الاقليمي والمذهبي والقبلي، التي تبثها قوى الظلام على طريق أمتنا نحو الحرية والسلام والتقدم والكرامة القومية والانسانية.

سميح القاسم (القدس العربي)